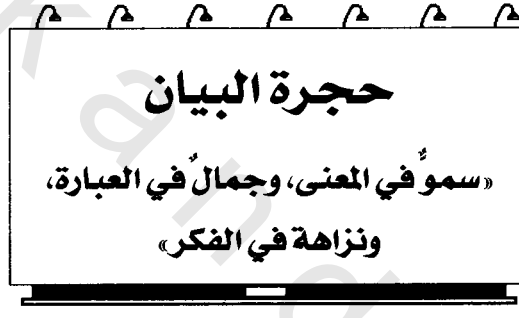

حجرة البيان

«سموٌ في المعنى، وجمالٌ في العبارة،
ونزاهة في الفكر»

obeikandl.com

obeikandl.com

حجرة البيان

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعده، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن الحقبة الزمنيَّة التي سبقت الإسلامَ في جزيرة العرب، لم تكن كغيرها من الحقب، لقد كانت متميِّزة بصورة عجيبة لا وسطيَّة فيها؛ ظلام دامسٌ في جانب العقيدة، وركامٌ خرافيٌّ أفسد الفطرة السليمة وسدَّ منافذَ الضَّوء في نفوس القوم وعقولهم، يصاحب ذلك إشراقٌ عجيب في البلاغة والبيان، وفصاحةٌ ساحرةٌ في اللِّسان، وعنايةٌ فائقةٌ من القوم ببراعة القول يتفاضلون بها فيما بينهم، وبها يتقدَّم رجالٌ، ويتأخَّر بها آخرون، بل تتقدَّم بها نساءٌ على رجال - بالرغم من سلبيَّة نظرة العربي إلى المرأة في الجاهلية قياساً إلى الرجل.

خَطابةٌ تجعل من البيان سحراً، وشعرٌ يحمل القوم على أجنحته المرفرفة، فيطير بهم إلى الفضاءِ البعيد، أو يَهوي بهم إلى قرارٍ سحيق.

أَلْهَى بني تغلبٍ عن كل مكرمةٍ

قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

إنها حقبة زمنيَّة متميِّزة أدبياً، كان للكلمة فيها دورُها العظيم، ووقْعُها الساحر في النفوس؛ مفاخراتٌ ومنافرات، وحكمٌ وخُطَب، ومعلَّقاتٌ شعرية يتناقلها النَّاس في جوٍّ من النَّشوه الأدبية والمتعة الفنية، تصغر عندها كلُّ نَشوةٍ ومتعة.

إنَّ مجالس القوم ومسامراتهم التي استطاعت ذاكرة التاريخ أنْ تحتفظ لنا بقَدْرٍ يَسيرٍ مما جرى فيها من بليغ القول شعراً ونَثْراً، قد هيَّأتْ للسان العربي من فُرص الفصاحة والبيان ما يندر أنْ نجد له مثيلاً في التاريخ البشري، حتى أصبح المجتمع العربي في تلك الحقبة مجتمع (الكلمة) تُسعده وتُشقيه، تعلو به وتهبط، تظلِّله بظلال الأمن حيناً، وتجرُّه إلى ساحات القتال والحرب الضَّروس التي لا هَوادةَ فيها أحياناً أخرى.

(مجتمع الكلمة) التي لا تعرف موقع الوسط أبداً، فهي؛ إمَّا أنْ تُضيء فتنشر الضَّوءَ في كل ما يحيط بها، وإما أنْ تُظْلِمَ فتنشر الظلامَ في كلِّ ما يحيط بها.

مجتمع الكلمة التي تمدح فتفرط في المديح، وتفخر فتغلو غلوّاً لا يقبله العقل السليم، وتهجو فما تدع لفضيلةٍ عند من يُهجى مكاناً،

وتصف فتحوِّل طبائع الأشياء، وتغريك بهذا التحويل حتى تظن أنه صواب وما هو بصواب... وهي مع كل ذلك تصقل الألسنة، وتُبرز المواهب، وتكوِّن في المجتمع العربي قاعدةً صلبة للغةٍ قويَّة أصيلة ظلَّتْ تترقَّى حتى أصبحتْ جديرة - في صورتها البيانية المُثْلَى - بأن تكون لغةَ القرآن الكريم، وأن يكون نصيب الرسول ﷺ منها نصيبَ «مَنْ أوتي جوامع الكلم» «فقد كان - عليه الصلاة والسلام - في اللغة القرشية التي هي أفصح اللُّغاتِ وأَلْيَنُها بالمنزلة التي لا يُدافَع عليها، ولا ينافس فيها، وكان من ذلك في أقصى النهاية»[1].

وعلى الرغم من شيوع هذا الجوِّ اللغويِّ في جزيرة العرب آنذاك، إلا أنَّ البيوت والقبائل تتفاضل فيما بينها بياناً وفصاحةً، ويكون نصيب الأجيال الناشئة من هذه الفصاحة وذلك البيان نصيباً وافراً يتفاضل بتفاضُل قبائلهم وبيوتهم، فلا تعدم أنْ ترى في كتب التاريخ والسِّيَر أخباراً تُروى عن غلامٍ صغير بَهَر أَقْطَاب البيان وروَّاد الفصاحة بعذوبة لغته، وسلامة منطقة، وفصاحة لسانه. أَوْ تسمع عن امرأةٍ تصوغ كلماتها بياناً بديعاً فتُقَدَّم على كثير من فصحاء الرِّجال، وما الذي يمنع من ذلك ما دامت البيئة بيئة فصاحةٍ وبيانٍ بديع، وأدبٍ رفيع؟!

(١) مصطفى الرافعي، تاريخ آداب العرب ٢/٢٨٤، نشر دار الكتاب العربي، لبنان ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

لقد كان نصيب (صاحبة الحرير الأخضر) من تلك الثروة اللغوية وافراً، وكانت بيئتها الخاصَّة متميِّزة بعقولٍ راجحة، وقلوب خافقة، ونفوسٍ واثقة، وألسنة فصيحة.

ولماذا لا يكون نصيب (صاحبة الحرير الأخضر) من البلاغة والبيان وافراً، وأبوها من أعلم العرب بأنسابها ومنازل قبائلها؟!

ألم يكن هو المرجع الذي أمر الرسولُ ﷺ حسَّان بن ثابت رضي الله عنه، بالرجوع إليه ليفصِّل له أنساب القوم؟

ألم يكن أبوها هذا معجباً بجيِّد الشعر حافظاً له يتمثل به في كثيرٍ من المواقف؟

إنَّ بيتاً يكون راعيه بهذه الصفات لجديرٌ بمكانةٍ عاليةٍ في عالم الفصاحةِ والبيان، وإنَّ فتاةً نجيبةً ذكيَّةً تعيش في هذا البيت لجديرة بأن تكون من فصاحة الكلمات في الذروةِ والسَّنام.

لقد عاشت صاحبة الحرير الأخضر في هذه البيئة العربية الخالصة، على شاطئ ذلك النهر البياني المتدفق الذي يبدأ منبعه الصافي من قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ويسري صافياً نقياً عَبْرَ سُوَر القرآن الكريم وآياته المعجزة، وتمتد فروعه إلى قلوب المؤمنين به فتغرس فيها يقيناً لا يتزعزع، وإلى ألسنتهم فتسقيها فصاحةً نقيَّة لا تشوبها شوائب الجاهلية التي صبغت

كثيراً من كلمات اللغة العربية وأساليبها بصبغة الانحراف الجاهلي والضلال، ثم يصبُّ ذلك النهر البياني في أدب الأمة الإسلامية كلِّها لا يتوقف أبداً على مرِّ الأيام.

ثم تهيَّأ لصاحبة الحرير الأخضر - بعد ذلك - العيش في بيت النبوة الطاهر، البيت الذي تبدأ منه فصاحة الكلمة ونقاؤها وإشراقُها وإليه تنتهي.

البيت الذي أُوتي صاحبه - عليه الصلاة والسلام - القرآن ومثلَه معه، فكان مدرسةً عظيمة في نزاهة الكلمة، ونقاءِ العبارة، وصفاءِ الأسلوب، وصدق المنهج. كيف لا، وهو الذي لم يكن - عليه الصلاة والسلام - شتَّاماً ولا لعَّاناً ولا يرضى بالفاحش من القول؟

عاشت (صاحبة الحرير الأخضر) في هذا البيت الجليل محتلَّة مكاناً خاصاً من قلب صاحبه، فجمعت المجد والعلم والبيان من أطرافها، وبدا ذلك واضحاً في كلِّ كلمة رويت عنها.

قُدْرَةٌ عجيبة على انتقاء العبارة، وإتقان التصوير الفنِّي للموقف، ووضعٌ للشاهد في موضعه الصحيح وثقة كبيرة في التعامل مع اللغة.

تأمَّل معي الصورة التالية التي تصوِّر بها (صاحبة الحرير الأخضر) موقفاً من المواقف.

قالت: «كان رسول الله ﷺ يخصف نعله وكنت أغزل، قالت: فنظرتُ إلى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فجعل جبينه يعرق، فقلت: يا رسول الله، نظرت إليك فجعل جبينك يعرق، وجعل عرقُك يتولَّد نوراً، فلو رآك أبو كبير الهذليّ لعلم أنَّك أحقُّ بشعره.

قال: وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذليّ؟

فقالت: يقول:

ومُبرأً من كلِّ غُبَّر حَيْضَةٍ
وفساد مُرضعةٍ وداءِ مُغْيِلِ
وإذا نظرتَ إلى أَسِرَّة وجهه
بَرَقت بُروق العارض المتهلِّل

قالت: فوضع ما كان في يده، وقام إليَّ فقبَّل ما بين عينيَّ وقال:

جزاكِ الله يا عائشة خيراً، ما سُرِرْتِ مني كسروري منك»[1]

صورة أدبيةٌ رائعة، تتجلَّى فيها دقَّة التصوير للموقف وإشراق العبارة، وسلاسة الأسلوب، مع ما يُعْرَض في ثنايا ذلك من جوانب الحياة الأُسْرية الهادئة المستقرة، وذلك الجوّ العائلي المفعم بالحب الصادق في بيت النبوَّة الطاهر.

(١) الحافظ الإصبهاني: حلية الأولياء: ٢/٤٥.

obeikandl.com

إنَّ تعامل (صاحبة الحرير الأخضر) مع الكلمة تعامُلُ العارف بمواطن جمالها وقوَّتها وبيانها، والمدرك لمكامن الرَّوعة والتأثير فيها، تنتقي العبارة التي تلائم الموقف في غير تكلُّف أو تصنُّع، وتحسن استخدام الشاهد الشعري في مكانه الملائم الذي لا يصلح له سواه، وتربط المعنى بالمعنى، والفكرة بالفكرة والصورة بالصورة.

وهذه مقدرة بيانية لا تتحقق إلا لأصحاب المواهب المتميِّزة.

ومن هنا كانت فكرة هذا «الكتيِّب» الصغير الذي يحاول أن يعبر جسور حقب الزمان الممتدَّة عبر خمسة عشر قرناً ليقف على ذلك الشاطئ الجميل يتأمل نهر الفصاحة المتدفق من بيت النبوَّة الطاهر، من خلال بعض القطع الأدبية الراقية التي رُويت لنا عن (صاحبة الحرير الأخضر) أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، أحبّ نساء الحبيب المصطفى ﷺ إليه.

وفي مقدمة تلك النماذج الأدبية (حديث الإفك) المنقولُ إلينا في كتب الحديث الصحيحة بنصِّه الأدبي البديع الذي صاغته أم المؤمنين في أنصع عبارة، وأبلغ بيان.

إنَّه الأدب المتدفِّق الذي لم تدنِّسْه الصَّنعةُ المتكلَّفة، أو التكلُّف المصطنع، الأدب الذي غفلت عنه معظم الدراسات النقدية الأدبية في أدبنا العربي قديمه وحديثه، حيث شُغِلَتْ عنه بصراع يمكن أنْ يُوصف بالعُقْم أحياناً؛ حول اللفظ والمعنى، وما يتبع ذلك من آراءٍ

نقديةٍ متضاربة شغلها الأدب الصناعي الذي انحرف - غالباً - عن نزاهة الكلمة وبراءتها.

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها النقائض، والأغراض الشعرية التي أفسدها الغلوّ، ولعبت بمصداقيَّتها المبالغات والأهواء، إنها محنةُ «تسلُّطِ أصحاب الصَّنعة والتكلُّف على الأدب، فصاروا يتخذونه حرفةً وصناعة ويتنافسون في تنميقه وتحبيره، ليُثبتوا براعتَهم وتفوُّقَهم، وليصلوا به إلى أغراض شخصية محضة»[1] وليس معنى هذا أننا نغفل الأثر الإيجابي لتلك الدراسات النقدية، ولكننا ننبِّه إلى ما غفل عنه كثير من النقاد من كنوزٍ أدبيَّة تمتلئ بها كتب الحديث النّبوي والسيرة، والتاريخ الإسلامي العريق.

والآن ...

أدعو القارئ الكريم، والقارئة الكريمة، للدخول إلى بساتين الأدب الراقي، والكلمة الجميلة المؤثرة، إلى البلاغة العربية في صفائها ونقائها، وأدعوك إلى حجرة العلم والأدب، حجرة صاحبة الحرير الأخضر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، لنجلس مع الجالسين وراء السِّتر المضروب بينها وبين الناس، لنتعلَّم منها كيف يكون الأدب، سموّاً في المعنى، وجمالاً في العبارة، ونزاهةً في الفكرة.

---

(١) أبو الحسن الندوي، نظرات في الأدب ص: ٢١، دار البشير للنشر، الكتاب الثاني في سلسلة إصدارات رابطة الأدب الإسلامي، ط: ١٤١١هـ.

ولنستمع إليها وهي تعرض معاناتها في أرقى عبارة وأجمل أسلوب.

أسأل الله لي ولكم التوفيق في الدنيا والآخرة إنه سميع مجيب «آمين».

عبدالرحمن صالح العشماوي

الباحة، بني ظبيان - قرية عَراء

١٤١٦/٣/١٧هـ

obeikandl.com